دائماً ، فانه من المستحيل اذن الا يكون لذلك التكتيك اطار استراتيجي عريض . « ان فهم الكل يمكن المرء من معالجة الجزء على وجه كامل لان الجزء خاضع للكل ، اما الرأي القائل بان النصر الاستراتيجي رهن بالنجاحات التكتيكية فهو رأي خاطىء لان صاحبه لا يدرك ان الشيء الرئيسي والاول الذي يقرر مصير الحرب هو البراعة ، او عدمها ، في اخذ وضع الحرب الكلي ومراحلها المختلفة والعلاقة بينها ، بعين الاعتبار » (١) .

ان ذلك يوضح بان الحرب (التي تعرف عادة بانها السياسة في درجتها العنيفة) ، هي بالدرجة الأولى رؤيا استراتيجية ، ومثل هذه الرؤيا لا يمكن ان تتوفر الا من خلال دليل عمل أي نظرية ثورية . ان مراحل الثورة المختلفة ، من اصغرها وحتى آخرها ، خاضعة بالطبيعة لكل ما تخضع له اشياء عالمنا : الحركة الجدلية المستمرة ، ولذلك بالذات فانها محكومة بالدرجة الاولى لقرارات الانسان ، المسؤول عن مصيره . ومثل هذه القرارات لم تعد في عصرنا خاضعة للتجريبية او الدوغمائية . إن المقاومة الفلسطينية في مرحلتها الراهنة ما تزال تفتقد ـ لدى هذا التنظيم او ذاك ، وبهذه الدرجة او تلك ـ افقها الستراتيجي بما يختص ببعدين شديدي الاهمية : البعد القومي ، والبعد الطبقي .

ولا يبدو في التشديد على أهمية هذين البعدين معاً ، وعلى المستوى نفسه ، أي تناقض كما قد يخيل للحرفيين النساخين . فالحديث عن البعد القومي الوطني ليس حديثاً عن الشوفينية ، أو بحثاً **البورجوازية** عن اطار يبرر وجودها في السلطة وفي قمة علاقات الانتاج ، بل هو حديث عن الخصائص **التاريخية** المشتركة والمصير المشترك للطبقات الكادحة العربية صاحبة المصلحة الأولى في معركة **التحرير** وفي هزيمة عدوها المثلث : اسرائيل والامبريالية والرجعية ، وحديث عن معركتها الواحدة ليس فقط كحقيقة موضوعية يفرضها كونها تنتسب الى أمة واحدة ، ولكن أيضاً كحقيقة تفرضها المعركة ذاتها .

إن هذين البعدين في الثورة : بعدها القومي وبعدها الطبقي ، يشكلان معاً عمقاً أساسياً في مستقبل النضال الفلسطيني ، ومع ذلك فانهما لا يزالان غائمين ، بالرغم من الشوط الذي قطعه الكفاح الفلسطيني المسلح حتى الآن . المسألة ، على الصعيد القومي ، ناتجة ، في جزء كبير منها ، عن فقدان الأفق الطبقي في تحليل ورؤية الظروف الموضوعية . وقد أدى ذلك العجز الى سقوط بعض الفصائل في فخ القطرية . ومن الممكن النظر باختصار الى هذه القضية على الصورة التالية : لقد ادت الحقائق الموضوعية وتطوراتها الى قفزة حققتها الحركة الوطنية الفلسطينية ، متقدمة بالاجمال عن تلك التي كانت القوى الوطنية العربية مؤهلة لها . لكن اذا كانت الحركة الوطنية العربية تتحمل ذاتياً جزءاً من هذه المسؤولية ، فان تحميل المسؤولية كلها ، إلى درجة القطيعة ، هو قصور عن فهم طبيعة الواقع وتطوراته : فقد كانت الانظمة العربية البورجوازية الصغيرة عاجزة عن تهيئة الظروف الكفيلة باندماج هذه الحركات الوطنية العربية ، أو بتهيئة جو ملائم عملياً لنمو قوى أخرى ، ذلك أن معظم هذه الانظمة لم تكن بورجوازية صغيرة فحسب ، وإنما كانت تضيف الى هذه الصفة ـ بطبيعة نشوئها وممارستها ـ الصفة العسكرية والبوليسية . وهكذا فقد انهكت بتصورها القاصر للحزبية وللعمل التنظيمي ، (حتى ذلك

(١) المصدر السابق ص ٢٧٠ .

العمل التنظيمي الذي حاولت بناءه لخدمة اغراضها الذاتية) الاحزاب الوطنية العربية ، واورثتها للمعركة حين وصلت الى مرحلة اكثر تقدماً تشكيلات منهكة ومهتزة ومتعبة الى اقصى مدى ، فكرياً وتنظيمياً على السواء .

لا ريب في أن الانظمة البورجوازية الصغيرة ، فوجئت بالهزيمة قبل أن تستكمل دورها ، واطاحت هذه الهزيمة ببرنامجها العاجز والقاصر ان لم نقل انها فضحت ذلك البرنامج وعرّته تماماً . ولكن وجود انظمة بورجوازية عربية أكثر رجعية وأكثر امعاناً في التحكم العشائري او الاقطاعي او الاحتكاري من الانظمة البورجوازية الصغيرة جعل سقوط هذه الاخيرة عملياً مع برامجها السابقة واللاحقة ، مسألة لم تحدث بالسرعة التي توازي حجم هزيمتها وسرعة وقوعها ، بل انها ـ على صعيد جماهيري ـ ما تزال او على الاقل ما يزال بعضها ، يجذب ولاءات شعبية ، وينازع حركة المقاومة على تلك الولاءات .

ان هذه الصورة المشوشة للواقع الذي خلقته الهزيمة ، لم يتح فقط لهذه الانظمة البورجوازية الصغيرة الامعان في انهاك الحركة الوطنية المحلية والفتك بها وقطع الطريق عليها بمختلف الحجج ، بل أدى ايضاً الى حجب الافق الستراتيجي للثورة لدى بعض فصائل المقاومة الفلسطينية ، التي اخذت ـ احياناً ـ تلوم «العرب» (هكذا ، بلا تحديد) على الفشل في تحرير فلسطين ، واحياناً اخرى مناقضة تتعامل مع «العرب» هؤلاء (ولكن هذه المرة بالتحديد : الانظمة) دون ان ترى في ذلك تعاملاً مع اولئك الذين فشلوا في التحرير ، والذين ما زالوا يمارسون اعتى وسائل الكبت ، ضد خلق أي مناخ صالح لنمو ولانضاج قوة ثورية شعبية ، هي وحدها الحليف الطبيعي لحركة المقاومة .

من الناحية الواقعية هناك سؤالان أساسيان ومتلاحمان في هذا النطاق ، هما : هل يستطيع شعب فلسطين وحده (أو هل المطلوب منه وحده) تحرير فلسطين؟ واذا كان الجواب لا ، فمع من يجب على الثورة الفلسطينية أن تقاتل وضد من ؟ ان هذين السؤالين يطرحان قضية استراتيجية على التو ، يبدو فيها الخط القتالي ملتحماً تماماً مع الخط السياسي ، بحيث لا يمكن التقليل من أهمية النظرية الثورية وضرورتها ، لان مثل هذين السؤالين لا يدفعان بالضرورة نحو تحديد الافق القومي فحسب ، بل يقتضيان ايضاً حل سلسلة من القضايا المهمة ، ربما كان طليعتها قضية تحديد العدو وتحديد الصديق ، قضية تحديد اداة الثورة الاطول نفساً ، قضية تحديد اسلوب التحرير ، قضية تحديد التنظيم الطليعي ومهماته وعلاقاته ، الى آخر ما هنالك من قضايا لا يمكن حلها دون دليل عمل نظري يتفاعل مع ممارسات ثورية متواصلة ، ويؤدي الى استكشاف الأفق الطبقي للمعركة . ومن الخطأ الفادح وضع هاتين المسألتين ، في فكر المقاومة السياسي وفي ممارساتها وفق ترتيب ميكانيكي ، بل لا بد من ادراك تداخلها الجدلي الى ابعد مدى ، وعلى ضوء الظروف الموضوعية المحيطة بالقضية الفلسطينية . من الناحية التاريخية ومن الناحية الواقعية ومن حيث المستقبل يبدو الافق القومي أساسياً بصورة محتمة ، واذا كانت هذه الحقيقة مدعوة لان تأخذ حجمها في الموقف الفكري والتنظيمي والقتالي للمقاومة الفلسطينية ، فان الأفق القومي للمعركة هو الوجه الآخر لهذه الحقيقة ، وكل ذلك يجعل أي تنازل استراتيجي عن النضال الطبقي « قادراً على أن يعكس نفسه فوراً بشكل تنازل استراتيجي عن النضال القومي» ان «نزعة الاستسلام الطبقي تشكل في الحقيقة ، خلال الحرب الوطنية الثورية ، القوى الاحتياطية لنزعة الاستسلام القومي » وبالتالي فانه كي يضحي « الصراع ضد نزعة